البنية الزمانية من منظور تداولي في النصوص الجزائرية القديمة
-الرحلة الورثيلانية أنموذجا -

The study of time structure from a pragmatic's point of view through ancient Algerian texts
-El ouartilani's travel is an example-

بـــوجناح مريم: أستاذة محاضرة أ
المـــدرسة العليا للأساتذة

تاريخ إرسال المقال: 2018/06/27 **تاريخ قبول المقال:** 2018/11/11

الـملخص

لقد أصبح المنهج التداولي من أكثر المناهج توظيفا في دراسة وتحليل الخصائص السردية المكونة للنصوص الأدبية القديمة، وذلك في محاولة لقراءة هذه النصوص التراثية في ضوء مناهج التحليل اللغوي الحديثة، لذلك سنحاول في هذا العمل إبراز أهم خصائص البنية الزمانية من وجهة تداولية في إحدى أهم النصوص الجزائرية القديمة في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي، ويندرج هذا النص الأدبي ضمن فن الرحلة والموسوم ب "الرحلة الورثيلانية " للشيخ الورثيلاني، إذ سنقف عند أهم خصائصه التداولية المرتبطة بالبنية الزمانية، والمتمثلة في الاسترجاع والاستباق إضافة إلى التقنيات السردية الزمانية المتحكمة في الإيقاع الزمني والتي تحصر في كلّ من الاستراحة والمشهد (تبطئه السرد) والخلاصة والمقطع (تسريع السرد).

الكلمات المفتاحية: المنهج التداولي، التحليل التداولي، الرحلة الورثيلانية، الخصائص السردية، البنية الزمانية.

المؤلف المرسل: بوجناح مريم ، boudjenahmeriem@hotmail.fr

Abstract

The Pragmatic Methodology has become one of the most widely used methods in studying and analyzing the narrative characteristics of ancient literary texts, in an attempt to read these texts in the light of the modern analytical methods, in this work we will attempt to highlight the most important characteristics of temporal structure from a pragmatic point of view in one of the most important Ancient Algerian texts in the middle of the eighteenth century and this literary work falls within the art of the travel and is marked by the "El Ouartilani'sTravel " by El CheikhEl Ouartilani.

Keywords: Pragmatic Methodology, pragmatic analysis, Ouartilani's timTravel, *characteristics* of *narrative,* time structure.

مقدمة

يُقصد بالمنهج التداولي ذلك المنهج الذي يدرس النص الأدبي في علاقته بالسياق التواصلي التلفظي، و ذلك بالتركيز على عنصر المقصدية والوظيفية في النصوص السردية والشعرية من خلال فهم العلاقات الموجودة بين المتكلم والمتلقي ضمن سياق معين مشحون برسالة محددة، وهذا ما سيجعل من النص الأدبي تخاطبا وتداولا يجمع بين أطراف ثلاثة وهي: المرسل المتكلم الذي قد يكون كاتبا أو مؤلفا أو ساردا أو شخصية، والمرسل إليه الذي قد يكون شخصا مخاطبا كأن يكون قارئا أو متلقيا أو شخصية مقابلة للشخصية المتكلمة، وهناك العنصر الثالث الذي يتمثل في الخطاب التداولي أو الرسالة المرسلة في ضوء المعينات الإشارية كضمائر الأشخاص، وأسماء الإشارة، وظروف المكان والزمان.

ويُعدّ النص الأدبي من زاوية المنهج التداولي خطابا يهدف عبر مجموعة من الأقوال والأفعال الإنجازية إلى تغيير وضع المتلقي وموقفه السلوكي من خلال ثنائية (افعل ولا تفعل) وعليه يتجاوز النص الأدبي مستوى الأقوال والملفوظات إلى الفعل الإنجازي والتأثير الذي يتركه ذلك الإنجاز، وهذا ما يحيلنا إلى الحديث عن المقاصد المباشرة والضمنية التي تعبر عنها الشخصيات أو ثنائية المتكلم أو المتلقي، فالمنهج التداولي يتعامل مع النص الأدبي السردي باعتباره مقصدية سياقية ينبغي استحضارها بغية تأويل النص تأويلا صحيحا وسليما[1]. وهذه المقصدية السياقية لا تتجلى بوضوح إلا داخل البنى المتنوعة المكونة للنص ومن بينها البنية الزمانية، فما هي الخصائص السردية التداولية المكونة لهذه البنية؟ وهل نجد لها حضورا في النصوص السردية الجزائرية القديمة كرحلة الشيخ الورثيلاني؟

1 /البنية الزمانية للنصوص وفق المنهج التداولي

من أهم الخصائص السردية المكونة للنص السردي وفق المقاربة التداولية خاصية الزمان كمعين إشاري لبناء النص وفاعل من فواعل بناء البرامج السردية بشخصياتها المتنوعة، وقد أكدّ جرار جنيت (Gerard Genette) على أهمية الزمن في بناء عوالم النص الأدبي سواء أكان قصة أو رواية أو مسرحية بقوله " بإمكاننا سرد قصة دون تحديد المكان الذي تجري فيه الأحداث، كما أنه باستطاعتنا سرد تلك الأحداث على مسافة تبعد أو تقرب عن مكان وقوعها، لكنه يكاد يكون مستحيلا سرد أحداث دون تعيين الإطار الزمني لها "[2] فالزمن إذن هو بمثابة العمود الفقري للنص السردي، ولقد أحصى ميشال بوترو(Michel Potro) ثلاثة أزمنة متواجدة في الخطاب السردي وهي " زمن المغامرة، زمن الكتابة، زمن القراءة، وافترض أنّ مدة هذه الأزمنة تتقلص تدريجيا بين الواحد والآخر فالكاتب مثلا يقدم خلاصة وجيزة لأحداث وقعت في سنين (زمن المغامرة) وربما يكون قد استغرق في كتابتها ساعتين (زمن الكتابة) بينما يستطيع قراءتها في دقيقتين (زمن القراءة) ".[3]

بينما (تودوروف todorov) فقد ميّز بين زمنين سرديين: زمن القصة وزمن الخطاب وشرح الفرق بينهما على النحو التالي " زمن الخطاب هو بمعنى من المعاني زمن خطّي، في حين أنّ زمن القصة متعدد الأبعاد، ففي القصة يمكن لأحداث كثيرة أن تجري في آن واحد، لكن الخطاب ملزم بأن يرتبها ترتيبا متتاليا"[4] .

فزمن القصة إذن هو زمن الأحداث قبل أن تنقل إلى الخطاب إذ يمكن أن تحمل القصة أحداثا متداخلة في مدة زمنية موحدة بينما زمن الخطاب هو الذي يرتّب هذه الأحداث ترتيبا منطقيا وهذا ما يعرف بزمن السرد وهو " ذلك الزمن الذي يُقدم من خلاله السارد القصة، ويكون مطابقا لزمن القصة"[5]، غير أنه أحيانا لا يتطابق زمن السرد مع ترتيب الأحداث في العمل السردي فليلجأ الكاتب إلى المفارقات السردية وهي " تحدث عندما يخالف زمن السرد ترتيب أحداث القصة، سواء بتقديم حدث على آخر أو استرجاع حدث، أو استباق حدث قبل وقوعه"[6] وعليه فالنص السردي لا يسير على خط زمني موحد انتقالا من الماضي إلى الحاضر وصولا إلى المستقبل،لأن الأحداث في العمل الأدبي لا ترتب كما ووقعت على أرض الواقع وإنّما يكسر الخط الزمني من خلال استخدام تقنيتي الاسترجاع والاستباق،فالمفارقة السردية تتخذ الشكلين التاليين: الاسترجاع والاستباق.

الاسترجاع (Rétrospection)

عرّفه محمد بوعزة بقوله" يروي للقارئ فيما بعد ما قد وقع من قبل"[7] فهو عودة إلى الماضي ، و قد شرحت سيزا قاسم هذه العودة بقولها" يترك الراوي مستوى القص الأول ليعود إلى بعض الأحداث الماضية و يرويها في لحظة لاحقة لحدوثها، والماضي يتميز أيضا بمستويات مختلفة متفاوتة من ماضي بعيد و قريب"[8] .

وحسب ما يرى حسن بحراوي فإنّ" كلّ عودة للماضي تشكل بالنسبة للسرد استذكارا يقوم به لماضيه الخاص، و يحيلنا من خلاله على أحداث سابقة عن النقطة التى وصلتها القصة"[9] فهو بطريقة أو بأخرى يدفع بأحداث القصة إلى الأمام عن طريق العودة إلى الماضي، وهذا ما وضحه عدنان خالد بقوله "الاسترجاع الفني مهم لفهم أحداث العمل القصصي من حيث تقديمه للقارئ معلومات إضافية تعينه على تتبع الحدث و مجريات الأمور"[10]، ويقسم الاسترجاع الفني إلى نوعين هما :

استرجاع خارجي

عرّفه جيرار جنيت(Gerard Genette) على أنه " ذلك الاسترجاع الذي تظل سعته كلّها خارج سعة الحكاية الأولى"[11].أي أنّه استرجاع يعود إلى ما قبل العمل السردي.

وعرّفه عمر عاشور بقوله " هو الذي يعود إلى ما وراء الافتتاحية وبالتالي لا يتقاطع مع السرد الأولي الذي يتموقع بعد الافتتاحية لذلك نجده يسير على خط زمني مستقيم"[12]، وبالتالي فهو استعادة أحداث وقعت زمانيا قبل بداية عملية السرد الأولية.

استرجاع داخلي

وهو الذي تكون فيه الأحداث حسب جرار جنيت" حقلها الزمني متضمن في الحقل الزمني للحكاية الأولى"[13] ، أي يلتزم هذا الاسترجاع زمن السرد الأولي فيعود إلى ماض لاحق لبداية الرواية قد تأخر تقديمه في النص.

2- الاستباق (Anticipation)

عرفه جرار جنيت(Gerard Genette) بقوله: هو مجموعة من الحوادث الروائية التي يحكيها السارد بهدف اطلاع المتلقي على ما يستحق في المستقبل"[14] ،وعرف كذلك على أنّه " مخالفة لسير زمن السرد تقوم على تجاوز حاضر الحكاية و ذكر حدث لم يحن وقته بعد"[15] وقد يأتي على شكل "توقع حادث أو التكهن بمستقبل الشخصيات كما أنها قد تأتي على شكل إعلان عما سيؤول إليه مصير الشخصيات"[16] .

ويرى المنهج التداولي أن الاستباقات الفنية يقلّ استخدامها في ثنايا العمل السردي إذا ما قورنت بالاسترجاع، ومردّ ذلك أنّ الاسترجاع يفيد النص السردي أكثر

ممّا يفيد الاستباق، فالاسترجاع يؤدي إلى ربط حاضر الرواية بماضيها، أمّا الاستباق فهو يفقد العمل الأدبي شيئا من عنصر التشويق، و قد أكّد على هذه الفكرة عبد العالي بوطيب بقوله" الاستباق .....وهي تسمية ناذرة الاستعمال بالمقارنة مع السابقة (الاسترجاع)لأنّها تتنافى و فكرة التشويق التي تكون العمود الفقري للنصوص السردية الكلاسيكية التي تسعى جاهدة نحو تفسير اللّغز، و كذا مفهوم السارد الذي يعلّق فهم القارئ في معرفة مآل الأحداث"[17]

-كما يرتبط عنصر السرد بخاصية سردية جد مهمة في تحليل زمن الخطاب السردي ألا وهي إيقاع السرد بحيث " يتحدد إيقاع السرد من منظور السرديات بحسب وتيرة سرد الأحداث من حيث درجة سرعتها أو بطئها، في حالة السرعة يتقلص زمن القصة ويختزل، ويتم سرد أحداث تستغرق زمنا طويلا في أسطر قليلة أو بضع كلمات بتوظيف تقنيات سردية"[18]. ويُعتمد في تحليل ودراسة الإيقاع الزمني لأي عمل أدبي على التقنيات الحكائية التالية: الخلاصة، الاستراحة، القطع، المشهد، وتتحد كلّ من الخلاصة والقطع في تسريع السرد، بينما تتفق كلّ من الاستراحة والمشهد في تبطئة السرد وتعطيله وفيما يلي سنفصل القول في هذه التقنيات.

1) الخلاصة (Sommaire)

وهي " سرد أحداث ووقائع يفترض أنها جرت في سنوات، أو أشهر، أو ساعات، واختزالها في صفحات، أو أسطر، أو كلمات، دون التعرض للتفاصيل"[19].

2) القطع (الحذف) (Ellipses)

هو " تقنية زمنية تقتضي إسقاط فترة طويلة أو قصيرة من زمن القصة، أو عدم التطرق لما جرى فيها من وقائع وأحداث"[20].

وعرّفه نضال الصالح بقوله: "يعني تجاوز بعض المراحل من القصة، أو أن ثمة أجزاء من الحكاية مسكوت عنها في النص" [21].

ومن أشهر العبارات الموظفة في القطع: بعد مدة – بعد مرور السنين، وأحيانا يكون القطع ضمني غير مصرح به مباشرة وإنما يفهم من سياق الحكي.

3) المشهد (Scène)

المشهد هو "حالة التوافق التام بين حركة الزمن وحركة السرد... فتتساوى بذلك المسافة الزمنية (مستوى الحكاية) و المسافة الكتابية (مستوى الحكاية) "[22]، وكثيرا ما يتجلى المشهد في الحوارات الداخلية والخارجية للشخصيات التي غالبا ما تكون مقاطع حوارية مفصلة.

4) الاستراحة (الوقفة) (Pause)

عرفها حميد لحمداني بقوله " أن تكون في السرد الروائي توقفات معينة يحدثها الراوي بسبب لجوئه إلى الوصف، فالوصف يقتضي عادة انقطاع السيرورة الزمنية ويُعطّل حركتها"[23].

فالوقفة تحدث خاصة أثناء الوصف لذلك ظهر مصطلح الوقفات الوصفية (Pauses Descriptive) التي تقوم بتعليق زمن سير الأحداث.

2 /البنية الزمانية في النصوص السردية الجزائرية القديمة

إن العلاقة بين التداولية وتحليل النصوص علاقة استلزامية، إذ تساعد التداولية محللي النصوص على الفهم الدقيق لمقصدية التواصل المدمجة فيها مختلف الأبعاد، وتستعين في مقارباتها بمفاهيم مهمة منها: الفعل الكلامي والسياق...الخ، كما أن النص التداولي لا يحلل بوصفه لفظا مستقلا بذاته فحسب، بل بوصفه كذلك تفاعلا موقفيا، أو ممارسة اجتماعية، أو نوعا من التواصل في موقف اجتماعي، أو ثقافي،أو تاريخي، أو سياسي محدد، فيهتم بوصف الجوانب ذات الصلة بالأحداث التواصلية كعنصري الزمان والمكان، والظروف الخاصة والمحيطة بالنص، والمشاركين واتصالاتهم وأدوارهم الاجتماعية.

ولقد اخترنا لتطبيق خصائص البنية الزمانية التداولية رحلة الورثيلاني للشيخ الورثيلاني وهو الحسين بن محمد السعيد الورثيلاني ولد في بني ورثيلان سنة 1125 هجري وتوفي سنة 1193 هجري من أسرة أمازيغية شريفة معروفة بالعلم، فأبوه وجده كانا عالمين كبيرين في المنطقة، حفظ القرآن الكريم وهو صغير السن، تضلع في الأمور الفقهية وعلوم التوحيد، كما تفرغ لدراسة اللغة العربية والتاريخ فبرع فيهما، درس في بني ورثيلان وماطق مختلفة من الجزائر، وكثيرا ما كان يطول به المقام في بجاية.

في سنة 1153هجري خرج الورثيلاني قاصدا الحج، وفي سنة 1166 هجري حجّ للمرة الثانية، وفي سنة 1179هجري حجّ للمرة الثالثة منطلقا من دياره راجلا حيث مرّ على قرية سيدي خالد، وزار منطقة الميزاب، ومنها إلى تونس فليبيا ومصر ليبلغ أخيرا أرض الجزيرة، وأينما حلّ كان يسجل مشاهداته في الطبيعة وأحوال الناس وطبائعهم.

2أ /أعماله ومؤلفاته

اهتم الورثيلاني طوال حياته بجمع العلوم الفقهية، وإنجاز شروحات مستفيضة عن عالم التصوف والمتصوفة كما انشغل بالتفسير وكتابة القصائد، وله عدّة مؤلفات سيّما منها في الشرح مثل:

- شرح محصّل المقاصد للإمام أبي العباس أحمد بن زكريا لتلمساني.
- شرح لبردة البوصيري.
- قصيدة في مدح الرسول "صلى الله عليه وسلم"، من 500 مئة بيت.
- كتاب الرحلة السنية.
- كتاب المرادي.
- كتاب نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، المعروف بالرحلة الورثيلانية وهو من أهم المصادر التي تضاف إلى مؤلفات الرحالة المغاربة، ومن بين أبرز الرحلات التي شهدتها الفترة العثمانية خلال القرن الثامن عشر، حيث جمعت بين التحصيل العلمي ومقاصد الحج، وفيها سجل الورثيلاني ما عاشه وشاهده في كلّ مكان وقف عنده منذ أول يوم اعتزم فيه الرحلة، وقد فّصّل فيه تفصيلا إلى غاية عام 1182هجري سنة الشروع في إملاء ما كان قد جمعه الورثيلاني في أوراقه الكثيرة، ليُحولها في النهاية إلى عمل في غاية الأهمية من أحفاده المصلح والعلامة الفضيل الورثيلاني[24].

2ب/ دراسة البنية الزمانية في الرحلة الورثيلانية من زاوية تداولية

سنحاول في هذه الدراسة إبراز أهم الخصائص الزمانية من وجهة تداولية في أحدى أهم الرحلات الجزائرية في منتصف القرن الثامن عشر الميلادي (القرن الثاني عشر الهجري)، وهي موسوعة ضخمة تقع في 816 صفحة، أنشأها عندما ذهب إلى الحج عام 1179هـ، وهي وصف لرحلته إلى البقاع المقدسة وما شاهده من الأمكنة والآثار ومن لقيهم من العلماء والأعيان، وقد طُبعت في مطبعة بيير فونتانه الشرقية في الجزائر عام 1908م.

ويطلق عليها اسم الرحلة الورثيلانية نسبة إلى موطن الرحالة (بني ورثيلان) وهي منطقة قريبة من مدينة بجاية تابعة إقليميا إلى منطقة القبائل.

ولقد اعتمدنا في هذه الدراسة على النسخة النادرة الموجودة بالمكتبة الجامعية لجامعة بن يوسف بن خدة، جامعة الجزائر(1) والمعنونة ب" نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية للشيخ العالم الرباني والشريف النوراني سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني"، طبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر سنة (1908م- 1326هـ)، صححها محمد بن أبي شنب، ولقد احتوت هذه الطبعة على 819 صفحة، كما استعنا بالطبعة الأولى الصادرة عن مكتبة الثقافة الدينية بالقاهرة، سنة 2008.

1- زمن الرحلة

إن قصدية رحلة الشيخ الحسين بن محمد الورثيلاني مرتبطة بأداء فريضة الحج لذلك يحلو للكثير تسميتها بالرحلة الحجية، أو الرحلة الحجازية نسبة إلى الحجاز موطن أداء الفريضة.

وقد استغرق زمن هذه الرحلة ما يفوق السنة والنصف، وهذا ما أكده الطاهر حسيني بقوله "الزمن الفعلي للرحلة الذي استغرق مسيرة حوالي ستة آلاف كيلومتر، قطعها الرحالة في ستة أشهر تقريبا ذهابا، وحوالي سنة إيابا"[25] إذ ترك الشيخ الورثيلاني الديار نهاية عام 1179هجري، ولم يعد حتى عام 1181هجري، ويطلق على هذا الزمن من وجهة تداولية تسمية "زمن المغامرة" عند ميشال بوتور، بينما " تودروف" يطلق عليه تسمية "زمن القصة"، وبما أن هذه الرحلة رحلة خاصة لقصديتها المرتبطة بفريضة الحج فمنطقي أن يقسم زمنها الذي استغرق أكثر من سنة ونصف إلى ثلاثة فضاءات زمنية هي:

أ- زمن الطريق إلى البقاع المقدسة وما يرتبط بهذا الزمان من زيارة للأماكن ولقاءات مع العلماء والأعيان، ويبدأ هذا الزمان بيوم مغادرة الشيخ الورثيلاني لأهله وبيته وقد حدد هذا الزمن بقوله "لما أراد الله المشي منّا إلى الحج وقد سبق في علم الله أن يكون حجنا في عام تسعة وسبعين ومائة وألف (1179) مع إجابة وتلبية للخليل عليه السلام حين قال له الله تعالى "وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كلّ فج عميق"[26] وقد ارتبط هذا الزمن بمشاعر متباينة إذ امتزج حزن فراق الأهل والأحبة بفرحة أداء ركن من أركان الإسلام وما يتضمنه من لقاء بالرسول محمد صلى الله عليه وسلم، من خلال الوصول إلى قبره وزيارة أحبته فضلا عن الأماكن الطاهرة كجبل عرفة والتي يحن إليها كل مسلم وفي هذا المقام قال الشيخ الورثيلاني "... ووقع البكاء والصراخ من أهل البلد...فلما امتنعت كل الامتناع لم يبق إلاّ الصبر لأن القلوب قد تعلقت بالمصطفى صلى الله عليه وسلم، فسهل عليها الفراق."[27]

ومنذ لحظة الخروج والرحالة الورثيلاني يسرد لنا ما لاقاه في الطريق من وصف للأمكنة والمخاطر، وزيارات للشيوخ والعلماء والأعيان، وقد قيد هذا السرد بزمن وإن كان هذا الزمن ينقصه الضبط التام بذكر اليوم والتاريخ، فكثيرا ما كان الورثيلاني يربط الزمن بأوقات الصلاة ومن ذلك قوله "ويسمى هذا المحل الآن أم العظام، نزلناه عند وقت العصر"[28].

وقوله كذلك "وقد بتنا في فديد ثم ارتحلنا منه آخر اللّيل سائرين إلى طلوع الفجر"[29].

وقوله كذلك " حتى أوصلتنا قرب الظهر رابغ"[30] ، كما كان يضبط الزمن أحيانا بعدد الأيام والساعات ومن ذلك قوله "ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك...ومدة المسير إليها أربع عشرة ساعة من الزمان"[31].

وقوله "..ومنه إلى النعيم يومان ومنه إلى المنعم خمسة أيام... ومنه إلى أجدابية ثلاثة أيام..."[32]

ويسير الورثيلاني على هذا الدرب في التعامل مع الزمن الخاص بزمن التوجه إلى الحجاز لنصل إلى الزمن الثاني من زمن الرحلة.

ب- زمن الوصول إلى الحجاز وأداء فريضة الحج، وفي هذا الزمن ركز الرحالة كثيرا على زمن الدخول إلى مكة المكرمة وما خاله من مشاعر الفرحة والطمأنينة إذ قال"فدخلنا مكة فلم تغادر في النفس فرحة... فدخلناها في زحمة عظيمة كادت النفوس أن تزهق غير أن سرورها بالوصول إليها خفف بعض الألم بل قد زال التعب والنصب كأنّ النفوس في وليمة عظيمة لا يعلمها وما فيها من الفرح إلا من منعه... فهبطنا منحدرين إلى أن وصلنا... فدخلنا المسجد من باب بني شيبة...فظفرنا بالأمن والأمان والسلام"[33].

ثم شرع الرحالة في نقل مناسك الحج بداية من زمن الإحرام الذي بدأ عنده دخول وقت العصر تقريبا وانتهاء بطواف الوداع، وفي هذا الزمن احتفظ الورثيلاني بنفس الإشارات الزمانية التي وظفها في زمن الطريق إلى مكة وهي إشارات مرتبطة جلها بأوقات الصلاة ومن ذلك قوله:

- فبعد ذلك اليوم عند صلاة العصر ارتحلنا إلى منى.
- فلما خرجنا من مزدلفة ووصلنا بينها وبين عرفة طلع الفجر.
- فوصلنا ضحى إلى مسجد نمرة.
- سرنا بالليل إلى طلوع الفجر فقربنا المدينة المشرفة ثم كذلك إلى الإشراق بل إلى الضحى دخلنا المدينة.

إن لحظة الفراغ من مناسك الحج وبعد زيارة بعض الأماكن من طرف الرحالة تولجنا في لحظة أخرى وهي الخروج من مكة وهذا يقودنا إلى الزمن الأخير من أزمنة هذه الرحلة.

ج- زمن الرجوع إلى الديار ويبدأ هذا الزمن عند الخروج من مكة وهذا ما بينه الرحالة بقوله "بعد قضاء المناسك كلّها...فقد تم ذلك على الوجه الأكمل تقبل الله منا جميع ذلك ... وقد انفصلنا من مكة عند الظهر والبعض عند العصر ... وأما أنا فقد ودعت التوديع بقلب حاضر... واضطرمت نار الشوق في الفؤاد وأصابه حر الاحتراق فركبنا

وانفصلنا والحمد لله"[34]، ومنطقي أن يرتبط هذا الزمن بالحزن واللوعة لفراق الحبيب المصطفى وتتجلى هذه المشاعر خاصة عند لحظة توديع المكان المقدس وفي هذا المقام قال الورثيلاني " فلما لاح لنا لائح الافتراق، وانقدح زناد الاشتياق، تحركت الأحشاء، وذابت الأكباد وانهمرت العيون بالبكاء، وأصابت النفس العبرة فكادت أن تزهق الروح، من شدة ما أصابها من ألم الفراق... وعظم عليّ ألم التوديع حتى علا صوتي وارتفع وكاد أمري إلى العويل.." [35]

غير أن فرحة الرجوع إلى الوطن وملاقاة الأهل والأحبة قد تخفف من وطأة فراق النبي صلى الله عليه وسلم والحنين إلى مكة المكرمة، فشقّ الرحالة وركبه نفس الطريق المقطوع في رحلة الوصول إلى مكة ودخلوا أرض الوطن من تونس نحو مدينة قسنطينة ومنها إلى زمورة وصولا إلى بني حافظ لتنتهي الرحلة بدخول الورتيلاني إلى مسقط رأسه وقد أرّخ لهذه اللحظة بقوله "... إلى أن وصلنا إلى مقامنا ودارنا ليلة الجمعة وليلة العيد ويوم عرفة عام 1181 أحد وثمانين ومائة وألف فكما أصبح الله بخير الصباح اجتمعنا كالعادة لصلاة عيد الأضحى، فرآنا من لم يرنا عند الوصول فتمت النعمة وعظمت المنّة"[36]

من خلال تتبع هذه الأزمنة الثلاث نستنتج أن الرّحالة حافظ على الترتيب الزمني للأحداث وتسلسلها في زمن القصة.

2- المفارقات السردية الزمانية في الرحلة الورثيلانية

إن عدم توافق زمن السرد مع ترتيب الأحداث في العمل السردي يفرض حضور الاسترجاع والاستباق وهذا ما وقفنا عليه في هذه الرحلة، إذ وظف الورثيلاني في نصه تقنيتي الاسترجاع والاستباق ويظهر ذلك فيما يلي:

أ) الاستباق

إن هذه التقنية جد نادرة في رحلة الورثيلاني لطبيعة هذه الرحلة من جهة ولتتابع أحداثها فما ورد من استباق هو غير مقصود كتقنية من طرف الرّحالة وإنما وظف في خضم الأحداث وترتيبها، والاستباق الوحيد الذي وقفنا عنده بطريقة مباشرة قوله "أخاف عليكم من المحاربين... قد ثبت عندي بأنّهم خارجون إليكم، ولا أدري من طريق الكشف وهو الأنسب به والأليق بمقامه أو سمع ذلك ممن يوثق بهم، فلمّا أخبرني بهذا رسم جدولا في الأرض وخط خطا وأمر جميع الحجاج أن يمروا بذلك الخط فمرّ عليهم... وفي ذلك اليوم تلاقينا مع عدو نفسه المحارب لله ورسوله".[37]

هذا الاستباق كان من طرف الولي الصالح سيدي عبد الحق الذي نبّه من خلاله الورثيلاني وركبه إلى الخطر الذي سيلاقونه في الطريق، وحسب الورثيلاني فقد تحقق هذا التنبؤ، وهذا الاستباق مرتبط بخاصية من خصائص الرّحالة إذ كان الناس يؤمنون بكلّ ما يصدر عن الأولياء الصالحين.

ب) الاسترجاع

بما أنّ رحلة الورثيلاني مرتبطة بالتاريخ ارتباطا وثيقا من حيث الأحداث ومجرياتها وإعادة استذكارها فمنطقي أننا نلمس توظيفا مكثفا لهذه التقنية، ومن ذلك عند دخوله وخروجه من زمورة أوقف السرد ليعود إلى ماضي زمورة فقال "وفيها قائد لأهلها سائد بهم يظلم وكيدهم في نحورهم دائم يسعون ببعضهم بعضا قد أهلكوا ولم يكن من اللّه الرضى وبسبب ذلك اضطرمت نار الفتنة وحقت عليهم كلمة اللعنة... وزمورة علمها قليل وجهلها جليل وكثيرة اللّهو واللّعب".[38]

3- الإيقاع السردي الزمني في الرّحلة الورثيلانية

أ) تسريع وتيرة زمن السرد

مثلما أسلفنا الذكر تقوم عملية تسريع الحكي على تقنيتين هما الخلاصة (المجمل) والحذف (القطع).

1- الخلاصة (المجمل)

لقد وظف الورثيلاني الخلاصة من خلال تلخيصه لأحداث ممتدة زمنيا كان يفترض أن تأخذ حيزا زمنيا طويلا في زمن السرد فأوجزها من خلال تلخيصها، والنماذج عن الخلاصة كثيرة اخترنا منها قوله "وحصلت لنا مشقة عظيمة وكربة قوية إذ طلبنا في بدر عند الأمير فلم يتفق لنا الاستواء معه لكثرة فجوره... ثم اشتكيت لأمير مصر حاله... فوعدني بالاستخلاص منه عند المدينة... فأمرني بترك الثلث من الكراء فلم أرض إلا بالربع ... فلما شكوت له المرة بعد المرة أمرني بالذهاب إلى آغة عسكر المغربي فأمرني بترك الثلث أيضا"[39]

لقد اختزل الورثيلاني كل الأقوال التي دارت بينه وبين الحاكم القاضي ولخصها في أفعال هي: اشتكيت، وعدني، أمرني...إلخ

ولا شك أن هذه الحادثة استغرقت حيزا زمانيا معتبرا من زمن الحدث الرئيسي فالذهاب إلى الحاكم والشكاية له وانتظار الحكم وعدم قبوله والطعن فيه يتطلب مدة زمنية طويلة، غير أن الرحالة اختصر كل الأقوال في هذه الفقرة.

2- الحذف (القطع)

يظهر القطع جليا في رحلة الورثيلاني من خلال حذفه لأحداث وقعت في حقبة زمنية محددة بحيث يذكر الزمن لكن أحداثه يلغيها ومن ذلك قوله "ثم سرنا منها إلى مرحلة يقال لها الحنك... ومدة المسير إليها أربعة عشرة ساعة من الزمان... ثم سرنا منها إلى العقبة السوداء ومدة المسير إليها في جمل الأعداد... ثم سرنا إلى مفازة نبط ومدّة المسير إليها عدد كاف وهي عشرون ساعة من غير اختلاف[40]

نلاحظ في هذه الفقرة غياب تام للأحداث التي وقعت عقب الانتقال من مكان إلى مكان والأحداث التي وقعت في المكان ذاته بحيث حذف الورثيلاني كلّ ما تخلّل هذا الانتقال والترحال من أخطار وأهوال ولقاءات مع الأعيان والشيوخ.

ب) تبطئة زمن السرد

تقوم عملية تبطئة زمن السرد على تقنيتين هما الوقفة والمشهد.

1- الوقفة

وفيها يتوقف مسار الأحداث بإقحام تقنية الوصف كقوله عند دخوله لقرية رَابِغ "ورابع قرية فيها نخيل وآبار كثيرة في واد يأتي إليه السيل من بعيد تزرع فيه مفاتي كثيرة ودخن وذرة وهو من أخصب أودية الحجاز، ثم اشتغل الناس بغسل ثيابهم والاغتسال والتنظيف وشراء النعال".[41]

وكقوله كذلك في وصف زمورة "وهذه البلدة كثيرة الأرزاق قوية الأنفاق طويلة البنيان كثيرة المياه، فيها مزارع كثيرة وأهلها أهل شوكة... فهذه البلدة كثيرة السمن واللحم والقمح والمياه الباردة والديار الواسعة والثياب الحسنة الرفيهة من الصوف والكتان..."[42]

والرحلة جدّ حافلة بالوقفة إذ أن دخول منطقة أو قرية يفرض على الرحالة وصف ذلك المكان الجديد.

2- المشهد

كثيرا ما يتجلى المشهد مثلما ذكرنا سالفا في الحوارات الموظفة، والملاحظ في رحلة الورثيلاني قلة تقنية المشهد لاعتماده على السرد والاسترجاع كثيرا ومما وقفنا عنده كمشهد قوله "... ويقول إنّما جئنا لأعدائنا أولاد علي إذ سلبونا فسلبناهم وأخذونا فأخذناهم وقلت لهم إن حصل لكم الندم ذروا ما بقي من الإبل عندكم وكذا ثياب الولي الصالح الشريف سيدي محمد فقالوا أما الأولون منا طلبوه... قالوا

نحن في خمسمائة ثلاثمائة من الخيل ومائتين من الرجال وإنّي سألتهم عن وطنهم فقالوا نحن من وطن الصعيد من عمالة مصر"[43]

الخاتمة

من خلال هذه الدراسة الوجيزة لعنصر الزمن كمكون سردي تداولي في رحلة الورثيلاني استنتجنا ما يلي:

- الرحلة الجزائرية القديمة فن سردي قابل لقولبته في أحضان التداولية كعلم حديث قائم بذاته، إذ تتقاطع خصائص التداولية المرتبطة بالبنية الزمانية مع خصائص البنية الزمانية في الرحلة الحجية للورثيلاني في جميع أزمنتها إنطلاقا من زمن الطريق إلى البقاع المقدسة فالوصول إلى الحجازثم الرجوع إلى الديار.

وظف الورثيلاني في نصه ما يعرف في حقل التداولية بالمفارقات السردية فالنص حافل بتقنية الاسترجاع لارتباط الرحلة بالتاريخ ارتباطا وثيقا و هذا ما يستدعي إعادة إستذكار تلك الأحداث التاريخية.

- تمظهر الايقاع السردي الزمني كتقنية تداولية في نص الورثيلاني من خلال توظيفه للحذف و الخلاصة لتسريع الحكي، و الوقفة و المشهد من أجل تبطئة وثيرة سير الأحداث.

وفي الأخيرنشيرإلى أنّ العديد من الرحلات الجزائرية القديمة تنتظر ربطها بمعالم الدراسات.

الأدبية الحديثة كالتداولية والشعرية والسيميائية. و عليه لا يمكن إطلاقا غضّ الطرف عن أهمية التداولية في تحليل النصوص، أو الحطّ من قيمتها، فهي - حسب جميل حمداوي - من أهم الآليات الإجرائية النظرية والتطبيقية التي تسعفنا في تحليل الخطاب تفكيكا وتركيبا، أو دراسته فهما وتفسيرا وتأويلا، سواء أكان ذلك الخطاب المرصود لسانيا أم أدبيا أم نقديا أم فلسفيا أم منطقيا أم إعلاميا، إذ لا يمكن الاستغناء بأيّ حال من الأحوال عن البعد التداولي في دراسة اللغة الإنسانية بصفة عامة، والنص الأدبي والنقدي بصفة خاصة[44].

الهوامش

1- جميل حمداوي، المقاربة التداولية في الأدب والنقد، مقال نّشر بالموقع الإلكتروني " ديوان العرب"، 6جانفي 2012، يوم 15ماي2018 على الساعة15:30.

2- جرار جنيت، خطاب الحكاية، تر: محمد معتصم وعبد الجليل الأزدي وعمر الحلي، المشروع القومي للترجمة، ط2، 1997، ص42

3- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، المركز الثقافي العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1990، ص114.

4- مها حسن القصراوي، الزمن في الرواية العربية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2004 ص51.

5- محمد بوعزة، تحليل النص السردي، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2010، ص87.

6- المرجع نفسه، ص87.

7- المرجع نفسه، ص88.

8- سيزا قاسم، بناء الرواية، دراسة مقارنة لثلاثية نجيب محفوظ، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1984، ص04

9- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ، ص121

10- عدنان خالدعبد الله، النقد التطبيقي التحليلي، ط1، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1986، ص80

11- جرار جنيت، خطاب الحكاية، ص60.

12- عمر عاشور، البنية السردية عند الطيب صالح، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2010، ص18.

13- جرار جنيت، خطاب الحكاية، ص61

14- المرجع نفسه، ص78.

15- لطيف زيتوني، معجم مصطلحات نقد الرواية عربي، انجليزي، فرنسي، ط1، مكتبة لبنان ناشرون و دار النهار للنشر، 2002، ص15

16- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص132.

17- عبد العالي بوطيب، إشكالية الزمنفي النص السردي، مجلة فصول، مجلد رقم12، عددرقم2، الهيئة العامة المصرية للكتاب، 1993، ص135

18- محمد بوعزة، تحليل النص السردي، ص92.

19- نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، اتحاد كتاب العرب، دمشق، سوريا، 2001، ص175

20- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص156.

21- نضال الصالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، ص179.

22- عمر عاشور، البنية السردية عند الطيب صالح، ص22.

23- حميد لحمداني، بنية النص السردي، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط3، 2003، ص76.

24- ويكيبيديا – الموسوعة الحرة-، شبكة الأنترنيت، يوم17 ماي على الساعة 20:03.

25- الطاهر حسيني، الرحلة الجزائرية في العهد العثماني بناؤها الفني أنواعها وخصائصها، أطروحة مقدمة لنيل درجة دكتوراه العلوم في الأدب العربي، جامعة قاصدي مرباح، ورقلة، 2013-2014، ص 190.

26- الحسين بن محمد الورثيلاني، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار المشهورة بالرحلة الورثيلانية، صححها محمد ابن أبي شنب، مطبعة بيير فونتانا الشرقية في الجزائر، 1326 هـ / 1908م، ص4.

27- سيدي الحسين بن محمد الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، صححها محمد ابن أبي شنب، المجلد الأول، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2008، ص 104.

28- الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، طبعة 1908، ص 329.

29- المصدر نفسه، ص 380.

30- المصدر نفسه، ص 357.

31- المصدر نفسه، ص 351.

32- الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، طبعة 2008، ص 291، المجلد الأول.

33- الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، طبعة 1908، ص 385.

34- المصدر نفسه، ص 445.

35- الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، طبعة 2008، ص 610، المجلد الثاني.

36- الورثيلاني، الرحلة الورثيلانية، طبعة 1908، ص 804.

37- الرحلة الورثيلانية، طبعة 2008، ص 154، المجلد الأول.

38- المصدر نفسه، ص 108.

39- المصدر نفسه، ص 616، المجلد الثاني.

40- الرحلة الورثيلانية، طبعة 1908، ص 351.

41- المصدر نفسه، ص 358.

42- المصدر نفسه، ص 800.

43- المصدر نفسه، ص 235.

44- جميل حمداوي، التداولية و تحليل الخطاب، ط1، دار القاهرة للكتاب، مصر، 2001، ص47